الحسد (١)

المعنى، الأسباب، المعالجة

الحسد كراهة النعمة على المحسود وحب زوالها منه

محاضرة لفضيلة الشيخ سليمان المدني
اعداد:
عبدالرضا هارون

يلقي فضيلة الشيخ سليمان الشيخ محمد علي المدني حفظه الله سلسلة محاضرات مختلفة للعقيدة الاسلامية في مدرسته العلمية ويركن في تلك المحاضرات الى النواحي الخلقية والاجتماعية التي لها أثر في بناء شخصية الانسان الايمانية.

ان للقلب طاعات ومعاصي، فطاعته الاخلاق الحسنة والصفات الحميدة كالعبادة والشكر، ومعاصيه الاخلاق المذمومة والصفات الرذيلة كالحقد والحسد والغيبة، وفي هذه المحاضرات يتناول فضيلة الشيخ موضوع الحسد بنظرة شمولية وتفصيلية من المعنى الى الاسباب والمعالجة لهذا المرض النفسي الخطير الذي قطع أوصال المجتمع الاسلامي.

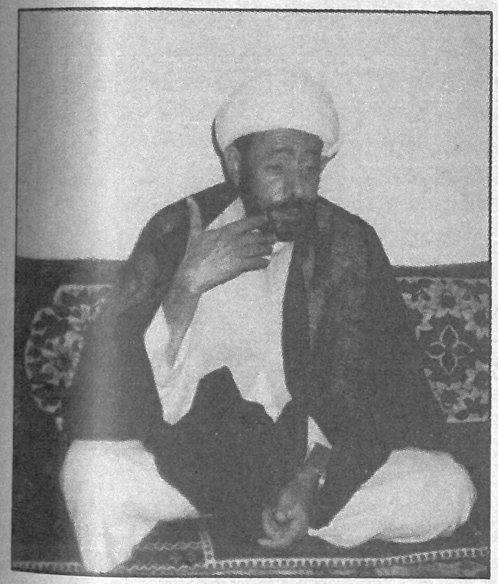

○ فضيلة الشيخ سليمان المدني ○

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين

الحسد من الأمراض الخبيثة الفتاكة ومن الرذائل الخلقية والنفسية التي لاتجد انسانا الا وهو يتبرأ منه ويذم من يتصف به حتى لو كان الانسان في حقيقة أمره متصفا بالحسد تجده يذم الحسد ويذم من يتصف به ولا اشكال ان للحسد أضرارا كبيرة على الحاسد والمحسود وعلى المجتمع بأسره، فالحاسد يشغل نفسه آناء الليل وأطراف النهار في التفتيش عن عيوب الشخص الذي يقصده وعن هفواته وعن زلاته وعن ما ينقص قدره أو يشينه ليشنع عليه بذلك فيبقى مشغول النفس ومشغول الفكر طيلة الوقت عن اصلاح نفسه وعن اصلاح شأنه وعن كسب الفضائل وكسب مايحتاج اليه، ولا اشكال ان الحاسد بقدر الامكان وهو يعمل ضد المحسود يحدث ارتباكا في سير التواصل الاجتماعي، فاذا اغتاب المحسود في مكان معين ينقسم الناس الجالسين الى قسمين فاما أن يردوا عليه واما أن يقبلوا كلامه، وفي حالة ردهم عليه تحصل المقاطعة ويشملهم بحسده، وفي حالة سكوتهم عنه يرتكبون اثما كبيرا وربما لتكرار مايعيب هذا الحاسد ذلك المحسود ترسخ في نفوسهم صدق قوله لأن الكذب اذا تكرر مرات ومرات ربما تالفه النفس وتقبله فعندئذ يصبحون حاقدين على ذلك الشخص الذي ربما لايعرفونه ولم يروه مدة حياتهم ولا علاقة لهم به، بسبب كلام هذا الانسان الحاسد.

فالحسد هو من أشد الاخلاق في الانحطاط والرذيلة. ويكفي أن أشير الى من ابتلى بالحسد هم الأنبياء والرسل ولاسيما نبينا محمد ﷺ وفي ذلك يقول أبوسفيان: «لقد أطعم بنو هاشم وأطعمنا وكسوا العريان فكسونا وقروا الضيف فاقرينا وجاروا الغريب فأجرنا ثم قالوا إن منا نبي ينزل عليه الوحي لا والله حتى يبعث منا نبي ينزل عليه الوحي» والمشكلة ان بعث نبي ينزل عليه الوحي ليس من الأمور التي يتمكن البشر من التمهيد لها والعمل من أجلها وانما هنا باختيار الله سبحانه وتعالى.

فعليه لايمكن اصلاح داء أبي سفيان وهو يحسد في مثل هذا النوع من الحسد أبدا ولقد قال الله سبحانه وتعالى فيه وفي أمثاله ﴿بل يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ وقال الامام الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام في تفسير الآية الشريفة نحن الناس المحسودون، وعلى أي حال إن الحسد لايقف عند حد معين وأبوسفيان عندما حسد بني هاشم عموما ومحمد صلى الله عليه وآله خصوصا لم يكن بسبب الفضل الأخروي للنبوة وانما بسبب المركز الدنيوي للنبوة.

لكن ما هو الحسد؟ فاذا أراد الطبيب مثلا أن يعالج مرضا وأن يصف له دواء لابد أولا أن يبحث عن ذلك المرض ويقوم بتشخيصه وبعد التشخيص لابد أن يبحث عن أسباب المرض ويشخص المرض، لأن المرض الواحد يأتي من أسباب متعددة خاصة الأمراض النفسية والأمراض الخلقية ولا تنحصر في سبب واحد مثل الأمراض الجسمية والمادية بل هذه قد تكون لها أسباب متعددة لايكاد علماء الطب ان يحصونها فكيف بالأمراض النفسية والخلقية فقد تأتي من أسباب كثيرة فما لم يتمكن الطبيب من معرفة السبب الذي من طريقه حصل هذا المرض، حتى مجرد تشخيص المرض لايكفي فلابد اذا أن نعرف ما هو الحسد وما هي بواعثه وأسبابه حتى نتمكن من دراسة أنواع الحسد وأصنافه وأن نرى كيف نصلح أو نعالج الحسد في كل نوع وفي كل صنف بقدر مايسر الله سبحانه وتعالى لنا في هذا الشهر الكريم.

وقد عرّف الحسد في كتاب جامع السعادات للشيخ النراقي رحمه الله بأنه تمني زوال نعم الله عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح فاذا لم ترد زوالها ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة ومنافسة، فان لم يكن له فيها صلاح وأردت زوالها فهو غيرة، وعرف المحدث الفيلسوف الكاشاني رضوان الله عليه الحسد في كتاب الحقائق وكتاب المحجة البيضاء بأنه كراهة النعمة على المحسود وحب زوالها منه فان لم يحب زوالها ولا يكره دوامها ولكن يشتهي لنفسه مثلها يسمى غبطة وقد يسمى منافسة والظاهر ان كلا العلمين قد صدر في هذا التعريف عن والد البهائي قدس سره الشيخ حسين ابن عبدالصمد في كتابه (نور الحقيقة ونور الحديقة) حيث انه عرف الحسد بأنه شدة الأسى على الخير يكون للناس الأفاضل وحقيقة المنافسة التشبيه بالأفاضل وحصول مثل مالهم من غير ادخال ضرر على الفاضل وقد يعبر عنه بالترويض.

اذا جئنا الى هذه التعاريف الثلاثة نجد على الرغم من انها تكاد تكون متشابهة الألفاظ الا انها تختلف ضيقا وسعة فتجد ان صاحب جامع السعادات قصر الحسد أن يكون على المؤمن وان يكون فيما له فيه صلاح فلو تمنى زوال نعمة الكافر بناء على هذا التعبير لايسمى باصطلاحه حسدا ولو تمنى زوال نعمة ليس للمحسود في بقائها صلاح حتى لو كان المحسود مسلما لايكون بالنسبة لهذا التعريف انه حسد ولذلك يكون هذا التعريف أضيف من التعريفات الثلاثة ويليه في الضيق من جانب ما تعريف صاحب نور الحقيقة لأنه قال: الاسى على حصول الخير للأفاضل فلا فرق بين أن يكون المحسود كافرا أو مسلما ولكنه فرّق بين أن يكون ممن يستحق هذه النعمة أو من لايستحق هذه النعمة، فلو حسد ذا نعمة لايستحقها لايكون بهذا الاصطلاح حسدا أو لو حصلت نعمة عظيمة لشخص من أراذل الناس وليس من أفاضل الناس وتمنى هذا الشخص زوالها فبناء على هذا التعريف لايكون حسدا.

ولو كانت أيضا هذه النعمة حصلت لشخص من أفاضل الناس ولكنها في حقيقتها ليست خيرا فتمنى زوالها بناء على هذا التعريف لايكون ذلك التمني حسدا فعندئذ يكون هذا التعريف فيه ضيق من جهة والتعريف الأول فيه ضيق من جهة ثانية، ولكن تعريف صاحب الحقائق والمحجة البيضاء يكون أكثر سعة وأعم شمولا لمعنى الحسد في التعريفين السابقين لأنه قال ان الحسد كراهة النعمة على المحسود وحب زوالها منه فهنا لم يفرق في المحسود بين أن يكون مسلما أو كافرا وبين أن يكون من الأفاضل أو من الأراذل ولم يفرق في النعمة بين ماكان فيها صلاح للمحسود أو ليس فيها صلاح للمحسود وهل تدخل في معنى الخير أو لاتدخل في معنى الخير، فيكون هذا التعريف هو أوسع التعريفات المطروحة في المقام من حيث شموله وعمومه.

فهذا المعنى هو الذي يقتضيه علم الاخلاق فان علم الأخلاق عندما يبحث الخلق الحسن والخلق الرذيل لا علاقة لوجود العقيدة بالنسبة للخلق، الخلق الكريم مفروض مع الكافر والمسلم والبر والفاجر، والخلق الرذيل مكروه استعماله مع البر والفاجر وفي ذلك يقول النبي ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ولذلك أشار الله سبحانه وتعالى الى حسد الكفار للمؤمنين اذا نزلت عليهم نعم الله فقال سبحانه وتعالى ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾ مع تغاير الدينين والعقيدتين وذلك لأن الخلق الفاضل خلق فاضل والخلق المذموم خلق مذموم ولا فرق بين المسلم والكافر، ثم ان النعمة مما له فيها صلاح أو مما ليس له فيها صلاح من أين يعلم الانسان وحتى صاحب النعمة نفسه ان هذه النعمة صلاح أو ليس في هذه النعمة صلاح؟! طبعا اذا أنعم الله على الانسان بنعمة فاستفاد منها في الأمور الدنيوية وفي الأمور الأخروية على النحو المشروع في الشريعة الاسلامية لاشك ان له في هذه النعمة الصلاح، واما اذا لم يستفد منها لافي دنياه ولا في آخرته فتارة لايكون له فيها صلاح وتارة تنقلب عليه ويصيبه منها ضرر عظيم وفي حالة استغلال هذه النعمة في معصية الله سبحانه وتعالى وفي الاضرار بعباده فهي مضرة عليه من دون شك.

ولكن من أين يعرف ان هذه النعمة مما له فيها صلاح أو ليس له فيها صلاح ومن أين يعلم الحاسد ان هذه النعمة مما للمحسود فيه صلاح أو ليس له فيها صلاح حتى نقول ان حبه لزوال النعمة التي ليس للمحسود فيها صلاح لايسمى حسدا؟ طبعا انما تمنى زوال النعمة، واما كون الانسان انه من الأفاضل أو من غير الأفاضل هذا يندرج تحت انه يستحق النعمة أو لا يستحق النعمة على تفسير أفاضل الناس أو أراذل الناس، هذه النعمة التي اذا أنعم الله بها على عبد لاينعم الله سبحانه وتعالى بها عليه الا هو، اذا سواء كان يستحقها أو لا يستحقها يكون الحاسد غاضبا على ارادة الله انه كيف يعطي زيداً مثل هذه النعمة وفي اعتقاده انه لايستحقها؟ هذا لا معنى له.

اذن يكون التعريف العلمي الذي يمكن البناء عليه في علم الأخلاق هو ما اجابه المحدث الفيض الكاشاني في الحقائق وفي المحجة البيضاء حين تلافى عيوب التعريفين السابقين.

ولكن ما هي بواعث الحسد؟

فمن العلماء من أرجع بواعثه الى القوة الغضبية، قال في الحقائق ان الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ومعنى الحقد ان يلزم قلبه استثقاله والبغض له والنفار عنه ويدوم على ذلك فيبقى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله «المؤمن ليس بحقود والحقد يثمر أمورا منها الحسد» وهو ان يحمله على أن يتمنى زوال النعمة عنه فيغتم بنعمته اذا أصابها ويسر بمصيبته اذا نزلت به وبمثل هذا أو قريب منه عبر عنه في المحجة البيضاء وأوضح من ذلك انه يرجع الحسد الى القوة الغضبية، وان القوة الغضبية بسبب وجود الحقد تورث الحسد، ويرجع أسباب الحسد الى تخوّف الحاسد من أضرار المحسود به بأن يتكبر عليه أو يتفاخر عليه أو غير ذلك بالنعمة التي أصابته فيتمنى زوالها حيث أن لايرضى أن يخضع له فتثور عنده القوة الغضبية وهو يعجز عن التشفي لقوة هذا الانسان فترجع القوة الغضبية وتكمن بباطن النفس وعندئذ تتحول حقداً واذا تحولت حقداً لا يشفى الحقد حتى يزول هذا الانسان من الحياة أو حتى يقع تحت القدرة والسيطرة لهذا الانسان وهذا لايكون الا بزوال النعمة وهذا هو معنى الحسد.

(يتبع العدد القادم)